VALSAN

حج الحياة الحقيقية في الله في موسكو ، 2-10 أيلول 2017

كيف نبني الجسور بين انقساماتنا ونحقق السلام في العالم؟

الشيخ محمد فالسان
مدير مجلة "العلوم المقدسة"

بالنظر إلى موضوع اليوم الذي يتناول السلام وسبل إقامته عن طريق التواصل، سأبدأ بنقل تحياتي إليكم باستخدام تعبيرين، ينسجمان، من قبيل الصدفة الحسنة، لفظاً مع بعضهما البعض:

Es- Salâmu 'alaykum و *Pax vobiscum*. وتشكِّل هذه التحية عادةً تعهدًا بالسلام وحصانة تامة ضدّ أيّ شكل من أشكال العداء المحتمل. كما أنها توفّر خاصية المساهمة في سعادة أولئك الذين يلقونها وكذلك أولئك الذين يتجاوبون معها، لأنه قد قيل: طُوبَى "لِصَانِعِي السَّلاَمِ (*makarioi oi éirénopoloi*) لأنَّهم أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ (متى 5: 9). ولايسعني إلا أن أذكر في هذا الصدد أن كلمة "إسلام" نفسها مأخوذة من جَذر كلمة "سلامة" والتي تُعَبِّر عن فكرة "السلام" التي نسمعها في السلام عليكم.

يمكن للمرء أن يبشِّر بفعالية بطريقتين: عن طريق الكلام الحسن والمِثال الحَسَن. لتوضيح هذه النقطة، سوف ألَخِّص وبإيجاز لماذا يشرِّفُني أن أكون بينكم اليوم. استناداً إلى "الطريقة"، وبعبارة أخرى الجماعة، التي أسّسها في القرن الثالث عشر الشيخ أبو الحسن الشاذلي، أنشأها والدي في باريس في عام 1951 الجماعة الصوفية الّتي أديرها منذ عام 1990. مع توسُّع الجماعة ، ولا سيما بسبب الولادات، سرعان ما احتاجت إلى مساحة أكبر وبيئة أكثر صحة. وبِحُكمِ عملي كمربّي نحل تمكنتُ مِن أن أحصل، في عام 1994، على عقارٍ في الريف، في جنوب مدينة ديجون، عاصمة بورغندي المعروفة في جميع أنحاء العالم لجودة منتجاتِها من الخردل وانواع النبيذ الفاخر.

تألّف الموقع الذي كان من المتوقع أن يساعدني في تطوير نشاطي المهني، من العديد من المباني، التي كانت بمعظمها قديمة، وتتطلَّب إعادة تأهيل، لخلق مساكن ومكان للعبادة يَحمِل اسْم "الزاوية". اكتشَفْتُ عند توقيع عقد الشراء أن المَوقِع كان تاريخياً؛ هذا هو المكان الذي فيه أسَّسَ روبير دو موليسم Robert de Molesme (1029-1111) الرهبنة السيسترسية في العام 1098. وهكذا وجدتُ نفسي وسط ما يشبه المستنقعات البدائية والغابات التي عَمِلَ الرهبان الأوائل على تأهيلها تَمهيداً لإقامة ديرهم، "الكنيسة الصغيرة" بمثابة "مختبر"، وفقاً لِشعار البنديكتيين *orare et laborare* ("الصلاة والعمل")،كما ولا يزال البئر الأصلي للأب المؤسّس قائماً. بما أن المكان كان في ذلك الوقت مغطى بالقصب، فقد أخذ الدير الجديد إسم دير سيتو Cîteaux (سيستيل *cistel* التي تعني "القصب"). بعد مرور عامين على وصولهم، نَقَلَ

الرهبان مركز نشاطاتهم العام مسافة كيلومترين إلى الجنوب للاستفادة من مياه النهر الوفيرة، وحَوَّلوا الموقع الأصلي، حيث كان الطين فيه غنيًا بالحديد، إلى مكان للحدادة والتبليط: ولا يزال المكان إلى اليوم يحمل أسم لا فورجوت *La Forgeotte* . بعد ذلك بوقت قصير، في وقت كان فيه عدد قليل من الرهبان العجزة والضعيفي الصحة ينادون بأن النظام الجديد كان محكوماً عليه بالزوال، وأنه سيكون مجرد عودة عَرَضية إلى التقيُّد الصارم بقاعدة القديس بنديكتس الرهبانية، وصل المنقذ المرسل مِنَ العناية الألـهية مع حوالي ثلاثين من المُرافِقِين، ذلك الذي كان سيُعرف لاحقًا باسم القديس برنارد، وأعطى الزخم اللازم والحاسم لضمان بقاء واستمرارية وتوسُّع الرهبنة السيسترسية. وسرعان ما انتشرت هذه الرهبنة لتغطي مجمل أوروبا، وفي خلال بضعة عقود شَمَلَت مئات الأديرة لتصل إلى أكثر من 1500 في العام 1250.

إن وصولنا في تموز 1994، الذي طال سريعاً أكثر من 150 شخصاً، لم يكن لِيَغْفَلَ على أحد. لم نعد في إطار المجهولين في المدن، وسرعان ما بدأ بعض السكان الأصليين ينظرون إلينا على أننا من السراسين الذين عادوا. ولحسن الحظ، كان الرهبان أقرب جيراننا، ولأن لِعلاقات حُسن الجوار أهمية كبرى في الإسلام، فإن ذلك كان أحد اهتماماتنا الأساسية. وهكذا ذهبتُ مع مجموعة من الإخوة، ونحن نرتدي ثوبنا الصوفي، نطرقُ باب الدير، ساعين لإقامة أفضل علاقة ممكنة؛ وقد استقبلنا رئيس الدير دوم أوليفييه، وكانت سنته الأولى كأبٍ رئيس. وهكذا تعرفنا على الرهبان الذين كانوا في ثوبهم الأبيض المعتاد. كانت اللحظة مهيبة، حين طلبت حماية الأب الرئيس لجماعتنا، مستحضراً سابقة نبويّة في هذا الصدد. يجب أن نتذكر أن أوّل من شهد للدور الرسولي للنبي محمد كانوا رهباناً مسيحيين. ففي مناسبتين، وقُبيل بدء رسالته، عُرِف الشاب القريشي محمد بأنه النبي المستقبلي للعرب. كما عُرِف على انّه نبي في خلال رحلة إلى سوريا، وكان حينها يبلغ الاثني عشر عامًا فقط. كان هناك راهب يدعى بحيرى، وكان مضطلعاً على الكتابات المقدسة وعلى دراية ببعض النبوءات، شاهده خلال توقفه أمام ديره، وبعد استجوابه والتحقق من بعض العلامات الحسية لديه، غَدَا مقتنعًا برسالته المستقبلية. وقد أَكدّ التشخيص، في خلال رحلة ثانية إلى نفس المكان، بعد مرور خَمسَةَ عَشَرَ عاماً، الراهب نسطور الذي يرجَّح انه جاء خَلَفاً لبحيرى. عند ظهور الدين الجديد، في وقت لاحق، كان ابن عم زوجته، ورقة بن نوفل، الّذي كان قد اعتنق المسيحية، هو الذي شَهِدَ على صِحَّةِ دوره ألإختياري. بعد فترة وجيزة، عندما واجهت المجموعة الأولى من المسلمين الاضطهادات التي كانت تتضاعف، أُجبرت على الهجرة من مكة المكرمة واللجوء إلى الحبشة (الإمبراطورية الإثيوبية) عند النجاشي (الملك)، الذي كان مسيحياً، والذي أكَّد لهم منحَه إياهُم الحماية الملكية. يمكن للمرء أن يستخلص من هذا السرد البسيط، مِقدار الدَيْن الّذي يدين به المسلمون تجاه مسيحيي تلك الحقبة!

نزولا عند طلبي، قَبِلَ الأب الرئيس في دير سيتو، والذي لم يَعرِف إحْسانه تِجاهَنا أيّ حد، حماية جماعتنا الصغيرة. وهكذا خُتِمَت هذه الصداقة التي تشدّدت أواصرها مع الوقت. وقد نُظِّمَت اجتماعات دَوريَّة لتبادل الخُبرات حول جماعاتنا وحياتنا الروحية. واصبحنا بشكل شهري نتبادل وجهات النظر حول نصوصنا المقدسة، شعائرنا، وما إلى ذلك. ثمّ جاءت فكرة الصلاة المشتركة.

وبما أنه لم يكن هناك مجال لأي شكل من أشكال المطابقة، فقد اتفقنا على ان نقوم معاً بـ"صلاة القلب" التي تجعل من الممكن، بحكم طبيعتها الصامتة، تفادي أية مشكلة. وفي وقت لاحق، لما تجلّت الرغبة في ابتهالٍ مشترك، بات من الضروري إيجاد النص المناسب لذلك. وتم اختيار صلاة رائعة لغريغوريوس النَزيَنْزي (329-390) وكانت مُناسِبةً تَماماً. مخاطبًا الله الواحد والعظيم، يبدأ التسبيح بهذه الدعوة: يا من يسمو على كل شيء، ماذا يمكننا أن ندعوك باسْمٍ آخر؟ ويتابع فيقول: "كلّ الأشياء، الناطقة والصامتة تُعلِنُ اسْمَكَ،... إليك ترتفع صلوات الجميع... لكَ كلّ الأسماء، كيف يمكنني أن أناديك؟"

كما قامت مبادرات أخرى كطقس غسل اليدين والقدمين إحياءً للطقوس الإبراهيمية عند بلوطات مَمْرا (سفر التكوين 18: 1-10) والإستقبال الحَسَنْ الذي قُدِّم ليسوع الآتي كغريب (متى 25: 35). وبالإشارة إلى هذه الأخيرة فذِكرُها يُرجِّع أصداء حديث شريف (حديث قُدسي) حيث، في يوم القيامة، يُعاتب الله الإنسان على هذا الأساس: "كنتُ مريضاً و لم تزرني". فيسأل الإنسان قائلاً: "يا ربّ كيف لي أن أزورك وأنت ربّ العالَمين؟" يُجِيبه الله: "ألم تكن تعلم أن أحد عبيدي كان مريضاً؟ ولكنك لم تزُره، أَوَلا تعلَم أنّكَ لو زرته ، كنتَ لِتَجِدَني بالقرب مِنه؟"

إذا كان التقارب السعيد بين جماعاتنا قد حَظِي بِمساحةٍ مباركة، من الجدير ذكره أن الوقت كان أيضا، ومنذ البداية، ميموناً بشكلٍ خاص. في 20 آب 1994، تم افتتاح المقر البورغندي الجديد ل"الطريقة" في يوم عيد القديس برنارد. وقد اتّضح أن هذا التاريخ كان يشير إلى لحظة استثنائية أخرى من التقارب. إذ توافق 20 آب من ذلك العام، وبحسب التقويم الشمسي، مع المولد النبوي، أي في ذكرى ميلاد النبي في 12 من شهر ربيع الأول في التقويم القمري. واحتمال حدوث مثل هذه المصادفة شبه معدوم، بالنظر إلى أن السنة هي 365 يوما وربع وفقاً للحساب الأول و354 يومًا وثلث وفقاً للثاني مما يؤدّي إلى تأخر حوالي 11 يوما بين الدورتين السنويتين وسنة واحدة تقريبًا كلّ 33 عاما. وما يجعل هذه المصادفة أكثر غرابة وندرة كونها قد حصلت بالضبط يوم ولادة النبي ، إن استندنا على نتائج ابحاث مارتن لينغس، مؤلف سيرة النبي (راجع كتاب *Le Prophète Muhammad*، الفصل 7، ص 33، باريس، 1977).

ولكي يكون هذا النوع من الانسجام قائمًا، وحتى يدوم السلام الذي ينتج عنه، من الضروري، وقبل كل شيء، أن يكون ممثلوه أشخاصًا تحرِكِهم في الغالب النية الحسنة والإرادة الصادقة ويراعون مصلحة الله في عملهم. ولكي نقتنع بهذا، ينبغي فقط أن نتذكّر الثناء الذي نقله القديس

لوقا (2: 14)، واستنادًا إلى النسخه اللاتينية للانجيل (الفولغاتا) الّتي أنتجها القديس جيروم: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام للناس ذوي النيّة الحسنة". ("*Gloria in altissimis Deo and in terra pax in hominibus bonae voluntatis*").

ومن الواضح أن هذه الرسالة قصيرة جدًا لتجيب بشكل صحيح على السؤال التالي: كيف نبني الجسور بين انقساماتنا ونحقق السلام في العالم؟ ومما لا شك فيه أنها تثير أسئلة أكثر مما تجيب عليها. إلا أنني آمل أن يُنظَر إليها على أنها مساهمة أوليَّة في سبيل إقامة اجتماعات بناءة نحن في أمَسِّ الحاجة إليها لإحلال السلام.